صورة من الحياة العلمية في مصر

تقي الدين السبكي

بقلم محمد طه الحاجري

لا أحسب أن مصر قد ظفرت في عصر من عصورها الاسلامية بما ظفرت به في عصر المماليك من مظهر علمي سابغ، وأثر في تاريخ الفكر العربي خالد، وصوت طائر صرنان في أنحاء الامبراطورية المصرية بما لعلمائها من نفاذ في البصيرة، وعمق في التفكير، وقوة في المناظرة، وشمول في المعرفة، وإحاطة مدهشة بآثار السلف، وابداع في شتى نواحي العلوم النظرية والشرعية، فمقدار ما وسم به هذا العصر من سطحية في أدبه، وتفاهة في الصور الشعرية المنبثة عنه، وضعف في الأسلوب الأدبي المتعارف فيه؛ كان عجيباً جهد ما يبلغه العجب في ذلك الجو العلمي السائد به، والروح العلمية الحق المهيمنة على رجاله، على ما كان يفهم من مدلول العلم إذ ذاك. ولا نحسبنا بحاجة إلى الاستشهاد لذلك المظهر الرائع، فان نظرة عامة الى كتب الطبقات المصنفة في ذلك العهد مثل الدرر الكامنة، والضوء اللامع وغيرهما تشهد لهذا القول شهادة قاطعة لا تحتمل شبهة ولا تحتاج إلى مراجعة. وبمقدار ما كان يسود هذا العصر من اضطرابات سياسية مترادفة، وفتن في بلاد الأمراء متعددة، حتى لتعد سبعة عشر سلطاناً تولوا أمر البلاد مدة حياة رجل واحد كهذا الذي نترجم له، ثم ما يستتبع ذلك من فوضى في الحياة العامة لا يحدها حد ولا يضبطها ضابط؛ كانت النهضة الفكرية مطردة في سبيلها، والحياة العلمية تقدم للناس أحسن مثلها، والعلماء يقومون على مذهبهم في الحياة بالرعاية والتقدير، لا يكاد يلفتهم عنه ما تعتلج به البلاد من الفتن، وما تموج به من الاضطراب

ولسنا الآن بصدد التعليل التاريخي لهذه الظاهرة التي لا نزاع في حقيتها، وإنما سبيلنا أن نسجلها هنا لتلفت أنظار بعض القراء عندنا إلى أن التاريخ الفكري شيء غير التاريخ السياسي، وأنه لا ينبغي أن يصرفنا انكار أحدهما عن الاعجاب بالآخر، وإنا لنرجو أن يتجه البحث العلمي اتجاهاً جدياً دائباً إلى إثارة وقائع هذا العصر العلمي المجيد في تاريخ مصر، وأن يعنى القوم عناية بليغة بكشف آثاره وتنور أسراره، فان في ذلك متاعاً للروح العلمية التي تتمشى في نفوسنا، وقياماً بحق مصر الكريمة علينا، وتغذية للروح القومية التي نحاول بكل سبيل تقويتها وتعزيزها في قلوبنا

وإذا كانت الصورة المقيتة التي تركها التاريخ السياسي والدرس المقتضب لهذا العصر في أذهاننا، قد صرفتنا عنه إنكاراً له، حتى ليود بعض الناس لو لم تكن هذه الفترة في تاريخ مصر؛ فان الصورة الجميلة الرائعة التي تركها التاريخ الفكري أعمر من هذا العهد جديرة أن تصرفنا اليه وتحببنا فيه، وتجعل منه مفخرة لنا تخفق لها قلوبنا، ومثلا عالياً لطلابنا ورجال العلم عندنا؛ حينما يستطيع البحث العلمي أن ينفض التراب عن هذه الصورة، ويجلوها للناس كريمة رائعة

وإنه ليغبطنا أن نقدم اليوم وجهاً من وجوه هذه الصورة، في شخص رجل من رجال ذلك العهد، لا نخفي إذا قلنا إنه من خير ما يمثل هذا العصر تمثيلا يملأ قلوبنا روعة وإكباراً، ويهز مشاعرنا حباً وإعجاباً، وإن كنا نأسف لأن أسباب البحث لم تهيأ لنا كما ينبغي لعرض هذه الشخصية في أكمل مجالبها: ذلكم هو العلامة الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي

عليه فرسته، ويكون للتاريخ بعد ذلك حكمه فيه، وقد بلغت الذم فاشهد

اللهم إني لا أدعي العصمة فيما قلت، وفيما سأقول في هذا الموضوع، وإنما أريد أن أعرض رأيي فيه على صفحات مجلة «الرسالة» الغراء، فان كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن نفسي، وإني حينما أعرض رأيي في ذلك على صفحات هذه المجلة، فانه سيصبح في يوم ظهورها مقروءاً لألوف الألوف من علماء الدين وغيرهم، فتشترك فيه الآراء، وتمحصه البحوث، وهذه وسيلة لتمحيص الرأي لم تكن متوفرة لأهل الاجتهاد الأول، وستكون لنا عوضاً مما قد يمتازون به علينا من سعة الاطلاع والعلم

عبد المتعال الصعيدي

— ١ —

ولد تقي الدين في شهر صفر سنة ٦٨٣ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٤ م) ، في أسرة شريفة النسب ، كريمة الحسب ، تنمي إلى قبيلة الخزرج الانصارية من بطن منها يقال لها أسلم ، كما أثبت ذلك النسابة المصري شرف الدين الدمياطي ، وقد أشار إلى هذا النسب الشاعر المصري ابن نباتة في مدائحه للشيخ عبد الكافي السبكي أبي تقي الدين :

وبيت فضل صحيح الوزن قد رجحت
به مفاخر آباء وأبنـــاء
قامت لنصرة خير الأنبياء ظبا أنصارهم واستعاضوا خير أنباء
أهل الصريحين من نطق ولحن ظبا
أهل الربيحين من نصر وإيواء

كما ذكره أيضاً القاضي صلاح الدين الصفدي في كتابه « أعيان العصر » . وقال ابن فضل الله العمري في كتابه « مسالك الأبصار » في ثنايا كلامه عن الشيخ تقي الدين : « جواد جرى على أعرافه ، وجاء على أثر سباقه . من عصابة الأنصار حيث يعرف في الحسب التليد ، ويدخر شرف النسب للمواليد . . . . بزغ من مطلع الصحابة رضي الله عنهم ، ونزع به عرقه الى التابعين لهم باحسان . وهو منهم إن لم يكن منهم »

ويظهر أن قبيلة « أسلم » التي ينتسب اليها تقي الدين لم تظل متميزة في مصر كما كان بعض القبائل الأخرى ، بل اندمجت في المصريين وذهبت فيهم ، ولعله لهذا السبب لم يذكرها المقريزي في رسالته « البيان والاعراب » بين القبائل التي بني عليها رسالته . وإنما بقي نسب بيت السبكي معروفاً لمكانته الاجتماعية التي سنشير اليها . والحق أن ذلك البيت كان بيتاً مصرياً صميما انطبع بالروح المصرية وسرت فيه ، كما ظهر ذلك جلياً في المقدمة الجميلة التي كتبها أحد أفراد هذا البيت : بهاء الدين أبو حامد أحمد بن تقي الدين السبكي لشرحه على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني . فقد كتب فيها فصلا عن مصر وطبيعتها ومزاجها وأثرها في أهلها . كما يبدو ذلك في عاطفة الشيخ تقي الدين نحوها حينما كان يتولى قضاء القضاة في الشام ، فقد كان يتمنى أن يأتيه أجله في مصر : أمنية من ثلاث

أما مكانة هذا البيت الاجتماعية فيظهر أن منصب الوزارة كان فيه ، فقد قرن اسم جد تقي الدين الثاني كما جاء في سلم النسب الذي أثبته شرف الدين الدمياطي ، بلقب الوزير . كما أشار ذلك ابن فضل الله العمري فيما كتب عن الشيخ تقي الدين . فقال

« . . . ثم خرج من بيت الوزارة حيث تتقاصر النجوم وتتناصر ثم تتناصف الخصوم »

وهكذا نرى أنه قد أتيح لشيخنا الجليل عرق في الثرى راسخ ، ومكان في المجد باذخ ، وأنه قد أمدته في حياته وراثة نبيلة ، وأعانته من قومه مكانة جليلة . إلى بيئة علمية خالصة تر في العلم وحده المثل الأعلى والغاية المثلى ، فقد كان أبوه زين الد عبد الكافي السبكي من علماء العصر وفضلائه ، وكان قد أدرا الامام الكبير تقي الدين ابن دقيق العيد وصحبه وأخذ عنه وتأ به ؛ وكان ذلك الامام آية عصره في سعة العلم ونفاذ البصيرة وقو الخلق ، حتى يقول تاج الدين السبكي في طبقاته : « ولم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار اليه في الحديث المصطفوى النبوي » وقد عرض عليه قضاء القضاة في مصر ، فناهيك به منصبا فتأبى وتمنع واستعصم بخلقه القوي وإيمانه المتين . ولكنهم ما زالوا به حتى قبل ، وإذ صار قاضي القضاة كان لا بد له في دينا وورعه أن يتحرى جهده في تعيين نوابه على الأقاليم من صفو العلماء . فكان زين الدين السبكي من أعيان نوابه كما كان من أعيان أصحابه : ولاه قضاء الشرقية والغربية

(يتبع)

محمد طه الحاجري

في القهوة والأدب ؟؟؟

دراسات أدبية ، بحوث اجتماعية ، أقاصيص مصرية
لون جديد في نقد وعرض الآثار ، اتجاه مبتكر في عالم القصة ،
صورة واضحة للدراسة الحرة ، والأدب الشاب

خطوة جريئة في عالم الادب

١٧٠ صفحة من القطع الكبير . الثمن ٦ صاغا بأجرة البريد
يطلب من عبد المعطي المسيري — صاحب قهوة رمسيس بدمنهور